الأستاذ محمد قاسم قديح

تقاليد لبنانية

(أزياء الرجال والنساء)

خضعت الأزياء اللبنانية، في شكلها وأسلوب تصميمها، لعادات اجتماعية وتقاليد دينية ومراتب طبقية، ولأمكنة وبيئات بين مدن وسهول وجبال وقرى.

تبدّلت هذه الأزياء، غير مرة، متأثرة بأزياء عثمانية وعربية وأوروبية. وأما الصورة التي طُبعت في الأذهان، واعتبرت تمثل الزي اللبناني، منذ القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، فهي كما وصفها المؤرخون والرحالة الأجانب، كانت مبعث دهشة وإعجاب لاختلاف أشكالها وألوانها.

تأثر الرجال الأقل تغييراً وتنوعاً نسبة إلى أزياء المرأة، بالزي الأوروبي، وبخاصة لدى سكان المدن، وطبقة المتعلمين الذين اطلعوا من خلال الأسفار، وإحتكاكهم بالأجانب، أو من خلال مطالعاتهم، على الجديد الآتي من الغرب.

قبل ذلك كانت أزياء الرجال بطابعها الجميل وتميزها تتألف من:

أ- السروال

من جوخ رصاصي اللون أو أسود، ومن قماش غامق أو أزرق، مطرز بخيوط حريرية حول جيبين إلى الجانبين خاص بالأعيان، ترافقه معاطف من الفراء بكمّين فضفاضين. أو من "عنبركيس" وهو نوع من القماش . وخام، تلبسه العامة في أيام العمل مصبوغاً بالنيل الأزرق، أو من اللون الأبيض للراحة والنوم، أو من الكتّان أو الخام المصبوغ، أو من الجوخ المطرّز فوق جيوبه (للمناسبات)، مع نقوش من قصب أو إبريم. ويرافق السروال زنار عريض يسمى "كمر" بألوان وأنواع: كشمير، حرير أسود، أحمر، أبيض أو من صوف أو قطن، له في أحد طرفيه طبقتان تودع فيهما نقود معدنية، وإذا كانت ذهبية تُلفُّ بقماش لمزيد من الحفاظ على لمعانها، ولعدم ضياعها. واعتاد بعض الأعيان وضع غدارات وطبنجات ومسدسات، وخناجر وشاكريات أو محابر نحاسية ذات أسطوانة طويلة لحفظ الأقلام خاصة بالكتاب.

فوق السروال يلبس "المنتان"؟هي كلمة فارسية عبارة عن قطعة قماش . وهو من حرير، له عُرى كبيرة على الصدر من خيوط فضية، وفوقه صدار من الجوخ، أو معطف مزركش

بالقصب. أو جبّة من الحرير الأرجواني للأعيان، تتهدّل على الكتفين مزينة على الظهر برسوم في شكل مثلثات.

1- لباس الرأس

ترافق هذه الملابس على الرأس لبادة من الجوخ أو الصوف، أو الطربوش التركي المرتفع، كوفيات توضع تحتها عرقيات صغيرة من نسيج مطرّز. وتثبّت الكوفيات بواسطة حبل أسود مقصب، أو مفتول من وبر الجمل. وتُلفُّ كوفيات الأعيان عند انتهاء أطرافها بزخارف ذهبية.

أما الطربوش فهو في أنواع، وله أصول وتقاليد. لبسه السلطان العثماني محمود الأول بعد أن خلع العمامة المغربية، وكان طربوشاً نمساوياً أحمر. واختاره الأمير بشيرالشهابي الكبير (1838).

وللطربوش أنواع: الطربوش المرتفع، العزيزي وهو طربوش مصري ، المغربي القصير مع شرابة حريرية كبيرة.

يُلبس الطربوش عموما بشكل أفقي فوق الرأس. القبضايات يميلونه إلى الوراء. العازب يمليه إلى الشمال، والمتزوج إلى اليمين، والمحزون أو المهان ينكسه إلى الأمام .

2- **العباءات:**

تُلبس في الشتاء، أو في السهرات والمناسبات الخاصة. هي من الحرير المقصّب، أو من وبر الجمل، أو صوف الماعز، أو من القماش الملوّن. يُلبس تحتها الدامر المزركش، أو "القفطان" هو ثوب قطني، أو الجبّة وهي لرجال الدين على اختلاف طوائفهم ومقاماتهم. لونها أسود، واسعة الكمين، من الحرير أوالصوف، وتتميّز جبّة الأحبار بشرائط أرجوانية، ترافقها على الرأس العمائم، وتشير إلى طائفة لابسها ومقامه الديني أو المدني، إذ يتعمم الأمراء والأعيان بشالات الكشمير ومنسوجات الحرير الموشّاة بالقصب باللونين العنابي والكحلي، أو باللون الأبيض للمشايخ الدروز، وكان كبر العمامة يشير أيضا إلى منزلة لابسها. إضافة إلى "القلانيس" للرهبان و"الطابيات" للكهنة.

3- في القدمين

من الرأس إلى القدمين، ولراحة القدم تأثير على راحة الرأس، تقول الأمثال، وانتعال الأحذية رافق تطور الأزياء فمن "المداس" الحذاء الكبير الحجم، المصنوع من جلد البقر أو الجمال، إلى الحذاء المعكوف الرأس ونصفه من القماش الملون، إلى حذاء يصل إلى الكاحل، فالجزمة إلى فوقه وهما من الجلد المصبوغ بالأصفر أو الأحمر أوالبصلي، أو الأسود والكحلي، ف"الصرماية" وهو النعل الخفيف، وله بكلة على اليمين او الشمال، وتُثبّت في القدم بواسطة بكلة من الحديد، والمشاية(وهو الحذاء المفتوح من الخلف وصولاً إلى الحذاء الأوروبي مع شرائط لربطه وهي من جلود مختلفة.)

و"للمكاري" في القرى اللبنانية زي خاص، يختلف بعض الشيء عن أزياء الأثرياء والفلاحين والعامة. يرتدي سروالاً فضفاضاً أزرق اللون، وجبّة واسعة من الصوف ذات كمين واسعين. يغطي رأسه بلبّادة أو بطربوش أو كوفية، أو يعصب جبينه بلفّة هي عبارة عن منديل تتدلّى أطرافه إلى تحت الأذنين، ويحمل محفظة جلدية مع سكين في وسطه تحيط بخصره بضعة حبال لربط ما ينقله على ظهر حماره أو دابته. أما المكاري الميسور الحال فيخصص للعمل شتاءً معطفاً طويلاً أو عباءةً تكون عموماً قديمة العهد.

4- أزياء النساء

أثارت أزياء النساء، منذ القدم، إعجاب من شاهدها لتنوعها شكلاً ولوناً وتطريزا وترصيعاً وتزييناً، ومن أبرزها ملاءات تُلبس من أعلى الرأس حتى أسفل القدمين، شاعت بعدها الملابس المكشكشة والمثناة والمقوّرة، فالقنباز المشقوق من الأمام مع أزرار نحاسية صفراء، وتحته قميص من حرير أبيض أو مطرّز، ويضم القميص على الصدر ببكلة أو بقطبة، إضافة إلى

سراويل من جوخ تُزمُّ عند العقبين، وفوق القنباز معطف جوخ هو الجبة، ويحق للمتزوجات فقط إرتداء الأثواب المكشوفة على الصدر.

كانت الأزياء عموماً، من الحرائر، واسعة ومزدانة بالدنتيلا والكشاكش، فوقها "كبرانات" محوكة بخيوط ذهب وفضة، ومزيّنة بعقود وأقراط وحلق في الآذان، وعلى الجبين "الصفيات" وهي قطع من نقود تصفُّ على قطعة قماش، يعصب الجبين بها، ومناديل وملاقط شعر، أو جديلة تتدلّى على الأكتاف، تعلوها عشرات الأشرطة الموشّاة بلآلئ شدّت طرافها على الرأس بشبه كلاّبة، وتنتهي بأزرار من ذهب أو فضة أوحجارة كريمة أو عملة ذهبية.وكانت النساء يعمدن إلى صبغ الشعر بالحناء لتغيير لونه، علماً أن اللونين الأشقر والأسود كانا من مميزات الجمال اللبناني.

فوق الرأس لبست المرأة اللبنانية المنديل المطرّز والمزينة أطرافه بلآلئ، وبقطع نقود تختلف قيمتها بإختلاف ثراء لابسة المنديل، أو منزلتها الاجتماعية. واختارت الشلحة وهي شقة

مستطيلة من الحرير تصبغ في المنزل، حسب اللون المفضل. ... وللمرأة الدرزية منديلها الأبيض المعروف، تخفي به رأسها مع عين واحدة من الوجه.

إضافة إلى ذلك استخدمت النساء الطرحة لغطاء الرأس، وهو نسيج شفاف باللونين الأبيض والأسود، ثم تعدّدت الألوان بتعدد المناسبات والألبسة.

أما الأميرات والنساء الثريات فلبسن "الطنطور" الذي ظل بارزاً حتى أواسط أربعينات القرن التاسع عشر، ويدل ارتفاعه أو قصره، أو خماره على مقام صاحبته.

بلغ إرتفاع الطنطور حوالي السبعين سنتيمتراً، وهو قرن من الفضة أو النحاس أوالخشب، مجوّف مثقل بتزبينات، ومرصّع بالحجارة الكريمة يثبّت على رؤوسهن.

"بإبزيم"؟ شبيه بالعروة ويركّز على طاسة من المعدن أو مذهّب ومخرّم. تعلق لابسته فيه خماراً طويلاً ينزل بأناقة على العنق والكتفين، تستعين به الأميرة لإخفاء وجهها عن الأنظار لدى خروجها من المنزل. وكان الطنطور يُلبس مائلاً إلى الأمام، أو إلى الوراء، ذات اليمين وذات اليسار، تبعا لعادة كل قرية.

من اللافت أن لابسة الطنطور لم تكن تتخلى عنه مطلقاً، في أي ظرف وحال، وكان بعضهن يوصي ببيعه بعد وفاتهن، ويستخدم ريعه لإقامة الصلوات عن راحة أنفسهن. ومن الرأس إلى تزيين الأصابع بالخواتم ثلاثة أو أربعة في اليد الواحدة، والمعاصم بالأساور الذهبية، والدمالج في الزنود، والعقود في العناق وعلى الصدور، والخلاخل في الأرجل فوق جوارب بألوان ونقوش، وأحذية دقيقة الصنع،بعضها من جلود وحرير، أو من جلد خاص، أو قبقاب من خشب يثبّت بشريطين حول الكاحل.

وكانت النساء يتطيّين بالمسك والعنبر وماء الورد والصندل واللبان. تبقى إشارة، حسب "هنري غيز" القنصل الفرنسي في لبنان ، إلى أن من عادة أمراء وأميرات لبنان في القرن التاسع عشر ألا يلبسوا ثيابهم العادية إلا مدة ثمانية أيام، أو عشرة على الأكثر، ثم يهبونها إلى رجال حاشيتهم ونسائها بمثابة أجر لهم، فالقمصان والسراويل وجميع أصناف البياض حتى الشراشف لا تغسل، بل تستبدل بغيرها عندما تصبح غير نظيفة. كانت ملابسهم اليومية بسيطة. لم يعرفوا البذخ في ما كانوا يرتدون.

منذ ظهرت لآدم وحواء عوراتهما وطفقا يغطيناها بورق التوت . وللملابس دائماً معان مجاوزة لمجرد كونهما غرضاً نفعياً يقينا لسعة البرد وقسوة الطقس . وللشعراء الحالمين حملت الملابس الكثير من الصفات الشاعرية في الكيان الأكثر اقتراباً لأجسادنا ذاك الذي يلتصق بنا ويتشكل في الفضاء على هيئتنا ، فتقف على ناحية منه جلودنا في خجل وانكماش . وعلى الناحية الأخرى يطل العالم الخارجي بكل ما فيه من صخب وفوضى تلفنا الملابس كدرع رقيق تحول بين هشاشتنا والعالم ...